كلمة الدكتور ممدوح خسارة
في حفل استقبال الدكتور وهب رومية

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

السادة أعضاء المجمع

السادة الحضور الضُّيوف الكرام

في رحاب أعرق مؤسَّسة لغوية عربية في العصر الحديث، نستقبل اليوم الزميلَ الجديد الكريم الأستاذَ الدكتور وَهْب أحمد رومية ابنَ لاذقية العرب ومن مواليدها لعام أربعة وأربعين وتسع مئة وألف.

حصل زميلنا على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق سنة سبعٍ وستين وتسع مئة وألف، ثم على الماجستير في الدراسات الأدبية من جامعة القاهرة سنة أربعٍ وسبعين وتسعِ مئة وألف، ثم على الدكتوراه من الجامعة نفسها بمرتبة الشرف الأولى سنةَ سبعٍ وسبعين وتسع مئة وألف.

عمل الدكتور رومية مدرِّساً فأستاذاً مساعِداً فأستاذاً في كلٍّ من جامعتي دمشق وصنعاء، حيث عُهد إليه فيهما برئاسة قسم اللغة العربية، ثم في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب في الكويت، وكُلِّفَ بأَخَرةٍ عمادةَ كلية الآداب فرئاسة تحرير مجلَّة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية، وعضويَّة هيئة تحرير مجلة (التراث العربي) في اتحاد الكتاب العرب.

درَّس زميلنا الفاضل الأدبَ الجاهليّ، والأدبَ القديم، والأدب الأموي

والأدب العباسيّ، وعِلْمَ الأسلوب وأدبَ الطفل والدراسات الفنية والجماليَّة. وكان من الطبيعيّ والحالةُ هذه أن يشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وأن يُسْهم في مناقشات رسائل أخرى كثيرة. وأن يُحَكَّم في كثير من بحوث الترقيات الجامعية، وأن يُقَوِّم بحوثَ مجلَّات متخصِّصة محكَّمة، وأن يشارك في مؤتمرات محليَّة وعربية، أدبية ونقديَّة بدراسات أصيلة مجدِّدة أَهّلَتْه لأن يكون من المجتهدين المعروفين في البحث الأدبي والنقدي في الأوساط الثقافية العربية.

للزميل الدكتور رومية خمسة كتب منشورة هي:

- الرحلة في القصيدة الجاهلية.
- قصيدة المدح في العصر الأموي.
- بِنية القصيدة العربية.
- شعرنا القديم والنقد الجديد.
- الشعر والناقد من التشكيل إلى الرؤيا.

والكتابان الأخيران من إصدار سلسلةِ عالم المعرفة الذائعةِ الصِّيت، وقد استحق مؤلَّفُه (شعرنا القديم والنقد الجديد) جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وهي جائزة قيِّمة نعتزُّ بعضوين من أعضاء مجمعنا فازا بها هما: الدكتور رومية في ميدان الأدب، والدكتور هاني رزق في ميدان العلوم.

وتذكر السيرة الذاتية للزميل خمسة عشر بحثاً نُشرت في مجلات علمية متخصِّصة أو مجلات ثقافية جادَّة.

الزميل الكريم:

لم يَخُصَّك أعضاء المجمع إذ انتخبوك بمكسبةٍ أو مغنمة، كما قد يتوهم بعضُهم، بل دَعَوْك إلى أمرٍ هو مَتْعَبة ومَجْهَدَة، لقد انتدبوك للرِّباط

معهم على ثَغْرٍ من ثغور الثقافة العربية، هو ثَغْرُ لُغتها العريقةِ حاملةِ هذه الثقافة وحافظةِ هويتها، وهو ثَغْر خطير نحاذر أن نُؤتى من قِبَلِه، على أنه لا يخيفُنا، ذلك أن لغتنا عصيَّة على الهزيمة وإن ضَعُفَت في حين، إذ هي محفوظة محميَّة، مسوَّرة: محفُوظة بحصن لا يُطال ولا يُطاول هو التنزيل الكريم، محميَّة بقلاعٍ من خصائصها الذاتية الخلَّاقة المبدعة بما تختزن من طاقة فائقة على التوليد اشتقاقاً ومجازاً، ومن قدرة عظيمة في التطوير الدلالي ومن استطاعة عالية في التعريب اللفظي ودَمْج المعرَّب في نسيجها عند الضرورة. مسوَّرة بغابة من شبا المران والقُضُب، هم رجالُ ونساءُ مجامعِها وجامعاتِها واتحاداتِها، وهم علماؤها وشعراؤها وأدباؤها والغُيرُ الكُثرُ من أبنائها الناطقين بها ومن غير الناطقين بها. وطالما قُلْتُ: نحن لا نخشى على عربيتنا الزوال - كما يهرف من لا يعرف- ودونَها هذه القِلاع والحصون، لكنَّ ما نخشاه هو أن نُقَصِّر - نحن أبناءها- في أن نجعل منها لغةَ علوم ومعاصَرة على قدم المساواةِ مع غيرها من اللغات الحيَّة المتقدمة القادرة على التعبير عن مناحي الحياة كلها.

الزميلُ الفاضل:

ما نعرفه عنك من جِدِّيَّة وموضوعية يحملنا على الاطمئنان، إلى أن هاتين الخَصْلتين الطيبّتين ستُوقَفان على خدمة العربية تنمية وتطويراً وعَصْرَنة. لقد وضعتم الإصبع على الجرح في عبارة مُنَصَّصة في مقدمة كتابك (شعرنا القديم والنقد الجديد) حيث تقول: «المعادلة الصعبة أن نكون معاصرين وعَرَباً في الوقت نفسه» وفي هذه المعادلة لا يَسَعُنا إلا الجَمْعُ بين طرفيها، فنكونَ عرباً ومعاصرين في آن، ذلك أنه لا قيمة لعروبة بلا معاصَرة، ففي ذلك خروجٌ من الحياة ودخولٌ في عالم الموات، كما لا

قيمة لمعاصرة بلا عروبة، ففي ذلك خروجٌ من الهويَّة ودخولٌ في مجاهل التبعيَّة والهامشيَّة، بدون عروبتنا سوف ننحدر إلى ما دون الرابطة القومية أي إلى الإقليمية والقَبَليَّة والطائفية.

السادةُ الحضور:

ما يحول دون تنمية لغتنا وتطويرها وتيسيرها اتجاهان: أحدهما يعاديها عن جهلٍ بقدرتها على النماء والتجدُّد، والثاني يحبُّها حبًّا شديداً يحمله على الخوف عليها من أيِّ نسمةٍ تجديد تهُبُّ نحوها، مما يدفعها إلى أن تجأر أنقذوني من هذا الحُبِّ القاسي. وإذا كنا لا نحفِل بدعاوى الطرف الأول، فإن الطرف الثاني هم شركاؤنا في حمل العربية وحفظها، والفرق بيننا وبينهم أنهم يريدون أن تبقى العربية تُحْفةً أثريَّة جميلة من تُحفَ الشرقيات، في حينِ نريد لها أن تكون حديقة غناء تمور أزهاراً وثماراً، يجد فيها العالمُ المكبُّ على ترجمةٍ علميَّة أو تجربةٍ تقانية ما يُسعفه ويُغنيه عن التوكُّؤ على غيرها للتعبير عن مُراده ومَقْصِده. كما يجد الأديبُ والفنانُ فيها ما يفتح أمامه آفاق الإبداع الجمالي. ولا يكون لهما ذلك إلا بتفعيل خصائص العربية في التوليد اشتقاقاً ومجازاً وفي الدلالة توسيعاً وتعميماً وتخصيصاً. يعرف اللغويون تلك الخصائص ويتغنون بها من مثل الإبدال أو الإلحاق أو التضمين، ويُلَقّنونها طلبَتَهم متفاخرين، يتناقلون أمثلة اللغويين القدماء لا يزيدون عليها مثالاً واحداً، ولا يُنْقِصُون، ولكن إذا جاء مجتهد – قد يصيب أو يخطئ – فأفاد من خصائصها في إقرار كلمة عربية جديدة ملأت الآفاق شيوعاً، تراهم يُعْرضون ويُعارضون وقد يتهمون. إن لغتنا بحاجة إلى من يُعَلِّمها ناقلاً وملَقِّناً، ولكنها بحاجة أكبر إلى من يطورها وينميها معتمداً على خصائصها التي لا يجوز الخروج عنها. إنَّ لغة انتقلت

من لغة بيان في الجاهلية إلى لغة عرفان في صدر الإسلام إلى لغة برهان فيما بعد، لَهِي في غُنْية عن خوفنا، إننا نحبُّ لغتنا على المَنْشط والمكره، كما نعشق وطننا في نعمائه وبأسائه، وكما نَهْوى الحبيب في رضاه وفي سَخَطه، في صباه وفي كهولته وما بعدها، وذاك لعَمْري هو الحبُّ الحقيقي. لا يُزَهِّدنا فيها مقولةُ غريب مُزْرٍ بها، ولا يُؤْيِسنا من تطويرها تُهْمةُ قريبٍ جَزِعٍ عليها، لأننا نثق بخلود هذه اللغة أنَّى اكتنفَتْها الظُّلَم أو تناوشتها السهام، ذلك أنها واجهت ما هو أحلك ظلْمة ومن هو أحدُّ سهاماً، ولكنها صمدت وانتصرت، ولم تكن تلك الظُّلمُ ولا السِّهامُ إلا وحولاً في طريقها، ومعروف أنه:

إذا اعتاد الفتى خَوْضَ المنايا فأَيْسَرُ ما يمرُّ به الوُحولُ

كم نَعاها أقوامٌ، ولكنهم نُعُوا هم وبقيت هي، وكم موَّتها أخصامٌ لكنهم قَضَوْا هم وخَلدَتْ هي، وكأني بها تردِّد مع من ضَمَّن قول أبي محسَّد:

كم قد نُعِيتُ وكم قد مِتُّ عندكُمُ ثم انتفضْتُ فزال القبر والكَفنُ

وما كان لها ذلك، إلا لأنها تحمل في خصائصها الذاتية مقوماتِ بقائها وأسرارَ خلودها.

إننا نغار على لغتنا، ولا يعدل غَيْرتَنا عليها إلا الثِّقةُ بها، فما من ضَعْفِ غيرة عليها نفتح لها النوافذ لتأخذ حقها من الهواء والنور، ولكن من عظيم ثقة بأن من نحبها ليست (لَحْماً على وضَمَ) ينال منها مَنْ يشاء ما يشاء، بل هي كحرائر العرب: (تجوع ولا تأكل بثَدْيَيْها).

نحن لا نفكر ولا نتغافل عما تواجهه لغتنا اليومَ من مشكلات، وما يفشو فيها من ظواهر الانحراف اللغوي. ولكنها ليست في ذلك بدعاً من بين اللغات فيما تُواجه وتجابه، فما من لغة إلا وتشكو من وَهْن وتَرَدٍّ في

مستوى الأداء اللغوي لدى متكلميها بدرجة أو بأُخرى، حتى إن كثيراً من الأمم وَضَعَتْ قوانينَ لإصلاح لغاتها ومعالجة مشكلاتها، كالصين وفرنسا وإيران وروسيا... ومع ذلك فلم يقف من أبناء تلك الأمم مَنْ يُشَنِّع على لُغتِه ويدعو إلى ما سواها في التواصل أو التعليم، كما يذهب نَفَرٌ من أبناء العربية، أو يُرَوِّجُ لأن نستبدل بلغتنا الفصيحة الموحِّدة، لهجةً عاميَّة ومفرِّقة.

وربما يَخْفَى على بَعْضٍ منا أن المشكلات اللغوية التي نواجهها هي نفسُها التي كنا نواجهها في خمسينيات القرن المنصرم، ومن يقرأ ما كتبه اللغوي الكبير محمد الخضر حسين وغيرُه في تلك السنوات عن أدواء العربية وأدويتها لَيَظُنُّ أنه يقرأ عن العربية ليومنا هذا، فما زالت الازدواجية اللغوية بين فصيحة وعاميَّة، وما زالت الثنائية اللغوية بين لغة وطنية ولغاتٍ ضرائرَ أجنبية، وما زالت المعاناة من ضعف الأداء اللغوي وركاكته. ولكن الذي يخفى على كثيرٍ منا، بل ومعظمِنا أنها هي المشكلات والظواهر عينُها التي كانت منذ ثمانية قرون والتي أتى عليها ابنُ منظور في مقدمة سِفْره النفيس (لسان العرب) حيث يقول في لغة عصره: «وذلك لما رأيتُه قد غَلَب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللَّحْنُ في الكلام يُعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناسُ في تصانيف التَّرجُمانات في اللغة الأجنبية، وتفاصحوا في غير العربية، فجمَعْتُ هذا الكتابَ في زمنٍ أَهْلُه بغير لغته يفتخرون، وصَنَعْتُه كما صَنع نوحٌ الفُلك وقومُه منه يسخرون»... وهكذا لم يَخْلُ عصرٌ من الانحراف اللغوي الذي نعاني منه، وكم ضاق ذَرْعاً بخَطَل الفَهْم وخَطَأ الكلام في لغة معاصريه مَنْ قال قَبْلَ أكثرَ من ألف سنة: «قد أُفْسِدَ القولُ حتى أُحْمِدَ الصَّمَمُ».

ولو كانت لغةُ القوم قديماً فصيحة سليمة كلُّها لما بَدَأ تصنيف كتب التصحيح اللغوي منذ القرن الهجري الثاني التي أَرْبَت على العشرات، عالَجتْ أخطاءَ الخاصة من علماءَ وفقهاءَ وخطباءَ، بَلْهَ أَخْطاءَ العامة. ولكنَّ كل تلك المشكلاتِ والظواهر لم تحُل دون تسَيُّدِ العربية لغة أَدَبٍ وعلم وإدارة حفظت الحضارةَ العربية الإسلامية فانتقلتْ منها إلى لغات العالم لذلك العهد.

وبَعْد: فإذا كنَّا لا نُقَلِّل من أثر المخاطر والمـُعَوِّقات التي تعترض لغتنا اليوم، فإننا نوقن بأن العمل اللغوي الدائب والجاد والمستوي على جناحَيْن من أصالة حقيقية، ومعاصرة فاعلة خلَّاقة، كفيل ببقاء عربيتنا حيَّة علمية وعالميَّة، ذلك أن اللغة منظومة كسائر المنظومات الفكرية والتقانية، هي بحاجة إلى التحديث والتطوير باستمرار، وإلا تخلّفت وتجاوزها الزمن والعلم، بل والسوق. لغتنا بحاجة إلى شجاعة بلا تهوُّر وإلى حكمة بلا عَجْز.

مرَّة ثانية نرحِّب بمن نستقبله عضواً عاملاً في هذه الهيئة المرجعية العليا للغة العربية في بلدنا، ونتطلع إلى أن يكون نِعم المـُعين ونعم الصَّبُور، لتحقيق المهمة النبيلة التي شرَّف الوطنُ مجمعَنا بحملها.

شكراً لكم والسلام عليكم